المقدِّمة

يبدو للوهلة الأولى أنَّ دراسة الأخبار في جانبها الأسطوري من السهولة بمكان، بيد أنّ الممارسة أثبتت أنّ خوض غمار التجربة يحتاج إلى مجداف النقد وزورقه. فالأخبار هنا كثيرة ومتنوعة، وتحتاج إلى تأمّل متنها ودقّة في التعامل معها، فكانت التجربة من الصعوبة بمكان؛ إذ إن جِدّة التجربة وقلة المؤونة، مع طول الرحلة، وندرة المراجع حول الأخبار، وإغفال النقاد لهذا الجانب من التراث العربي؛ جعل الطريق مليئة بالأشواك، وتحتاج إلى تأنٍّ حتى ننحيّها جانبًا ونسير.

إنّ لشعراء المعلقات أثرًا كبيرًا بين المعالم في الأدب العربي، وبما تداوله الرواة من أخبار حولهم، وقف منها النقد موقف الرافض لها المشكّك في صحة نسبتها إليهم، وبما تحمل هذه الأخبار في جانبٍ من جوانبها من دلالات تفسيرية للشعر، ربما تكشف عن جديد في فهمنا للشاعر. مع أن هذا الموضوع لم يُدرس دراسة مستقلة من قبل؛ لتعطي صورة متكاملة عن هذا الجانب من التراث، وما وجد منها فاهتمَّ بدراسة الأيام والسِّيَر، أو القصص الشعرية، أو دراسة الأخبار بصورة عامّة، ولم تهتم بأخبار شعراء المعلقات بشكل خاص، أو كانت بعض الدراسات قد عُنيت بحصرٍ وتصنيفٍ عامٍ للأخبار، أو استدل بها على ظاهرةٍ معيّنة، دون دراسة متن الخبر نفسه، فكانت تلك الدراسات لا تفي بالغرض النقدي، ولم تعطِ صورةً واضحةً عن هذه الأخبار، بل لم تقدّم رؤيةً تبرز ولو جانبًا واحدًا من هذه الروايات الإخبارية.

فأخبار شعراء المعلقات تفتقر إلى دراسة لا تقف عند الجمع والتصنيف، دون ربطها بمنهج حديث يبرز دلالتها، ويربطها بشعر الشاعر، وبنظرته للكون والحياة، وفق الشعارات السائدة في المجتمع العربي، لتغطي إهمال النقاد في قراءة الأخبار السردية قراءةً تتوافق مع دلالتها.

ويكشف هذا الكتاب عن جوانب هذه الأخبار، وبيان دور الراوي فيها؛ فيدرس متن هذه الأخبار، ويربط بينها وبين شعر الشاعر، ويبيّن منحاها الأسطوري، وتفسّره تفسيرًا يتلاءم مع نظرة الشاعر العامة، وربط هذه الأخبار المتضاربة بعضها ببعض، والكشف عن دلالاتها، وإبراز الصلة بينها وبين القصص الأسطورية، وصلتها بالأساطير غير العربية، ثم بيان صلتها بالواقع الاجتماعي، وبواقع الشاعر نفسه، مع بيان نظرة النقاد لهذه الأخبار وتقييمها في ميزان النقد.

كما يكشف عن جوانب الروايات التي اختصت بأخبار شعراء المعلقات، وبيان علاقتها بالشعر، ومعرفة من الذي صنع الآخر الخبر أم الشعر؟ وبيان منحاها الأسطوري، وتفسيره تفسيرًا يتلاءم مع نظرة الشاعر العامة للكون والحياة، ثم دور الراوي في هذه الأخبار، والربط بين المتضارب منها، وكشف دلالاتها، واستخراج صلتها بالقصص الأخرى، ثم صلتها بالمجتمع وبالواقع، وتوضيح وظيفتها؛ بغية الوصول إلى تقويم النقد لهذه الأخبار، وموقفه منها، بخاصة الدراسات السردية التي عُنيت بمثل هذه الأخبار.

وبسبب توزّع الأخبار في كتب الأدب والأخبار والتاريخ؛ فقد اعتمدنا مدوّنة أبي الفرج الأصفهاني (الأغاني) مجالًا في دراسة هذه الأخبار؛ كونها المرجع الأساس لاستقصاء دلالات الخبر؛ حتى يمكن أن نخرج ببعض النتائج، وقد يستأنس البحث ببعض المؤلفات الأخرى إذا دعت حاجة لذلك.

ويبدأ البحث بتمهيدٍ عن مفهوميّ الخبر والأسطورة، بدءًا بمعنى اللفظتين في القرآن، وما ورد عنهما في المعاجم العربية، فالخبر والأسطورة لدى الغرب، ثم الخبر والأسطورة في الدراسات العربية؛ سعيًا للوقوف على مفهومٍ للخبر والأسطورة يمكن تطبيقه على مثل هذه الأخبار.

ويختص الفصل الأول بـ«دور الرواة في أخبار شعراء المعلقات وقصصهم»؛ إذ يتتبع أهم وأبرز أدوار الرواة في صنع الخبر، ونقله من مبناه المجرد إلى صورة أخرى تلمح فيه الأسطورة، ويفيد البحث هنا من آراء القدماء من الرواة الكتاب، والنقاد المعاصرين في وضع صورة شمولية لهذه الأخبار؛ أي إن البحث في هذا الفصل يقوم على دراسة متن هذه الأخبار، وبيان منحاها الأسطوري مفيدًا مما كتبه الدارسون عنها.

ويتناول الفصل الثاني «الأسطورة في أخبار شعراء المعلقات وعلاقتها بأشعارهم» زمرةً من الأشعار التي كانت لها صلة بهذه الأخبار، ومن ثمّ قراءتها قراءة أخرى تكون تفسيرًا للشعر. وسيقف البحث هنا على الأخبار التي كانت على صلة بالشعر، أو ورد في متنها شعر، أو كان لها صلة بنظرة الشاعر العامة التي نقرؤوها من شعره، ثم من الذي صنع الآخر؟

ويقف الفصل الثالث «أخبار شعراء المعلقات في ضوء الدراسات الحديثة» على دراسة النقاد لأخبار شعراء المعلقات، وموقفهم منها، ويتتبع بعض ما كتبه النقاد حولها، من خلال عرض أقوالهم بشيءٍ من التفصيل، وتقسيمها ومناقشتها؛ بغية تكوين نظرة شمولية عن هذه الأخبار، والمقارنة بين كتابات النقاد وحكمهم عليها، حسب نظرتهم لهذه الأخبار، ثم يستفيد البحث من بعض المدارس السردية في الكشف عن دلالات بعض هذه الأخبار، ووظائفها، ثم يقف على توظيف أخبار امرئ القيس وعنترة في إبداعات الأدباء بوصفهما نموذجين أصليين، فيعرض بعضًا من فنون الأدب التي استدعت هاتين الشخصيتين.

وأخيرًا فهذا البحث يعدُّ محاولةً، وإن كانت لا تخلو من الاضطراب، فهو يريد الكشف عن هذا الموروث من الشفاهية العربية، ولعله يلفت الانتباه إلى نوع أدبي تجاهلته الدراسات العربية الحديثة، فبقي مغيّبًا مرفوضًا عن طاولة الأدب والنقد.

ولا أدَّعي أنَّني مهّدت الطريق وأزلت عقباته، فإنه لا يمكن أن يبقى سليمًا من العثار، ولكني أطمح إلى فتح الباب لمثل هذه الدراسات، ليلج فيه آخرون يبرزون خصائص الأخبار، ويخرجون بنتائج أكثر ضبطًا؛ حتى يمكن منها أن نرسم خطوطًا عريضة لهذا الفن العربي، فنضعه في منزلته المرجوة من الأدب؛ حتى يعبر إلى الآخر.

والله من وراء القصد.